كيف أصبحت كاتبا ؟ سنوات التكوين

3-1

عالم السحر والأسطورة وحكايا جدي وجدتي.. البداية التي جعلت مني كاتبا

يرويها / محمد عمر بحاح

ذات قرن ، ذات بحر ، عندما حملت القوافل الجضرمي ، إلى كل الجهات، كل القارات ، صرت أنا نسل ذلك الحضرمي نتاج ثقافتين متجاورتين ثقافة يمنية عربية ، وثقافة أفريقية عربية ، ونتاج كل الثقافات .

فقد ولدت ذات مساء ، في قرية على الساحل الأفريقي ، تدحرجت من البحر " اللازوردي " تسمى " حيس " في عام شهد مجاعة شديدة ، إلى درجة أن أبي أحبرني بعد ذلك بسنين ، إن الناس اضطروا إلى أكل لحوم القطط ! ولم أر هذه القرية بعدها قط .

ولدت لأبوين عربيين من حضرموت ، فأبي ينتمي إلى بيت البحاح في الديش الشرقية ، بينما أمي إلى آل باشطح في غيل باوزير ، وكلتاهما تقعان في حضرموت الساحل ، أو ما كان يعرف حينذاك بالسلطنة القعيطية .

ذات يوم ، حملت الهجرة أبي ، في سفينة شراعية مقتفياً أجداده الحضارم الذين يتبعوا من هجرتهم منذ الأزل ، فرست به في أفريقيا ، وقبلها بسنوات سبقه جدي لأمي فرست به سفينة مماثلة بين فخذين من أبنوس ، فيتزوج المرأة التي ستصبح جدتي ، وينجب منها تلك التي سيتزوج بها أبي ، والتي أصبحت أمي .

حملت السفن الحضارم إلى جاوه ، وإلى أفريقيا ، وإلى الأطلسي ، وإلى كل مكان في أشتات الدنيا فيه بيع وشراء ، وفيه نساء ، ومع التجارة نشروا الاسلام ، وأخذوا يتناسلون .

هكذا نسج القدر أولى خيوط لحياتي ، وتلا أبي " قصيدته الحضرمية " فولدت له أمي قمرا اسماه محمد .

ربما كان من حسن طالعي ، انني حظيت بجدين رائعين ، وكان كلاهما، ذاكرة لا تتعب ، تحفظ القصص والحكايا والاساطير . الأول ، وهو جدي كان حافظا لقصص وحكايا " ألف ليلة وليلة " والثانية وهي جدتي حافظة ورواية للأساطير والقصص الأفريقية ، الساحرة .

وكان أبي كما هي العادة العربية يرسلنا أنا واخوتي إلى البادية ، حيث يعيش جداي ، ويملكان مزرعة متواضعة في منطقة اسمها " حماص " ، ويربيان الأبقار والماشية ، أما في الصيف فقد كان يرسلنا إلى خالي ، الذي يسكن في قرية ساحلية ، فوقعت في هوى البحر ، وتعلمت الصيد والسباحة ، والصبر والتأمل .

نشأت السنوات الأولى ، من طفولتي، في كنف هذين الجدين الرائعين . ورعيت الماشية ، وعدوت في تلك السهوب والغابات ، وأكتسبت تلك الصلابة التي يكتسبها الأولاد الريفيون .

هذا في النهار . أما في الليل فنلتف حول الموقد ، فتتوافد القصص والحكايات على شفتي جدتي . وكفر قلبي من بين ضلوعي وأنا أرتجف من الخوف. لا تخلو قصص جدتي وحكاياها من الجان والمردة والحيوانات الأسطورية المتوحشة ، وعن جدتي هذه سمعت عن " المستذئب " أو الرجل الذئب الذي يتحول مع انتصاف القمر إلى وحش يقتل ضحاياه ، وذلك قبل أن أشاهده بعد ذلك بسنين طويلة في السينما كما جسدته أفلام أمريكية وأوروبية .

وأعترف بأن قصص جدتي عن المستذئب وأنا طفل ، كانت تثير في نفسي الرعب أكثر مما فعلته الأفلام .

كانت جدتي ، موردي الأول ، إلى عالم القصص والحكايات الخرافية ، ذاك الذي جذبني إليه ، وأنا بعد طفل صغير.. والذي سيغدو فيما بعد عالمي الخاص والأثير الذي سأحبه ، مثل حبات اللؤلؤ ، لا يكتمل عقدها إلى بساحل أبين ، وعدن الصغرى ، وكود النمر ، والشيخ عثمان .

لعدن عبقريتها حتى في اختراع الأسماء : الطويلة ، العقبة، البجيشة ، البغدة ، الزعفران ، السوق الطويل ، سوق الطعام . القطيع ، العيدروس ، الخساف ، شعب العماصير ، حافة البدو ، حافة اليهود، حافة البنيان ، معلا كشة ، معلا دكة ، القلوعة ، حافة القريشة ، الهاشمي ، القاهرة ، المنصورة ، المسبح .

وذات بحر ، تدفق عليها الناس من كل الجنسيات ، البحر يأتي بالسفن ، ومع السفن الناس ، قراصنة ، غزاة، وطالبوا عيش هنود وفرس وعرب وأفارقة ، سيزعم القبطان " هنس " ، بأن السكان المسالمين في عدن ، سطوا على السفينة " داليا دولت " ، وسيأتي باسطوله الحربي ، وبعد كالفطر في كل حوافي وأحياء عدن .

وهذا هو الاقتصاد .

وسيقطع الهنود على اختلاف دياناتهم المحيط ، تجذبهم نفس العبقرية ، سيخ ، بنيان ، بهره ، هندوس ، وسيأتون بأبقارهم " المقدسة " ! أو غربانهم وفئرانهم " المقدسة " أيضا (!!) وسيقيمون معابدهم إلى جانب المسجد والكنيسة .

وستأتي الشركات العابرة للقارات الـ : بي . بي ، كالتكس ، موبيل ، شل ،.. لها نشيدها ، ولعدن نشيدها الأزلي .. لكن سترطن بكل اللغات ، وكل اللهجات .

وهذه هي الثقافة .. أو تلاقح الثقافات ..

كان أبي ، قد وجد عملاً في دكان من دكاكين الشحارية، قرر أبي أن نستقر في عدن كمحطة وسطى بين المهجر الذي قدمنا منه ، ووطنه حضرموت الذي كنا ذاهبين إليه .. لكن لكم من الزمن ؟ .. لا أحد يدري .

أول ما فكر به أبي ، أن يدخلني المدرسة ، فقد كان يريد أن يراني متعلما . وقد طاف بي كل مدارس الشيخ عثمان الحكومية ، لكن لما كنت بدون " مخلقة " ، فقد رفضت جميعها قبولي تلميذا عندها .

من حسن حظي ، إن مدرسة أهلية أنشئت حديثا في الشيخ عثمان ، لانقاذ أولئك الذين هم أمثالي ، والذين لا يستطيعون دخول المدارس الحكومية بحكم القوانين السائدة . وقد قبلتني تلميذاً في صفوفها .. كان اسمها كلية بلقيس ، وعميدها هو الأستاذ / حسين الحبيشي . وقد تتلمذت على أيدي أساتذة مميزين أذكر من بينهم / أحمد المروني ، والشيخ قاسم غالب، ومربي صفي ، مدرس اللغة العربية / محمد سالم شهاب . وهم يومئذ من أعمدة الثقافة والتربية .

كانت عدن التي فتنتني ، في ذلك الوقت من بداية الستينات من القرن العشرين المنصرم ، درة المدن ، ليس في اليمن وحدها ، بل في منطقة الجزيرة والخليج ، وكانت شهرتها تمتد إلى الآفاق .. في آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا بوصفها طريق التجارة العالمية .. أو أحد أهم تلك الطرق .

وعدن ، قبل كل شيء ، هي قصة حضارة ، وتاريخ ، واقتصاد وتجارة وحياة ، وقصة شعب يتوق إلى حريته. وتشده عناصر كثيرة لكي يبحث عن كيانه الحر المستقل . عناصر سياسية ووطنية واجتماعية . ولهذا كانت تمور بالحركات السياسية ، والثقافية ، والادبية ، والفنية ، بكل ما فيها من تداعيات ، تصب كلها في النهر العظيم.. لكفاح الشعب وهذه هي السياسة .

في عمري ذاك ، لم يكن هذا الذي يجري في نطاق اهتماماتي ، بقدر ما كان يثير اهتمامي المدينة نفسها ، بصخبها، وضجيجها ، وأضوائها وحركتها التجارية التي لا تهدأ في الليل ولا في النهار. وأفقها الممتد بين الجبل والبحر .

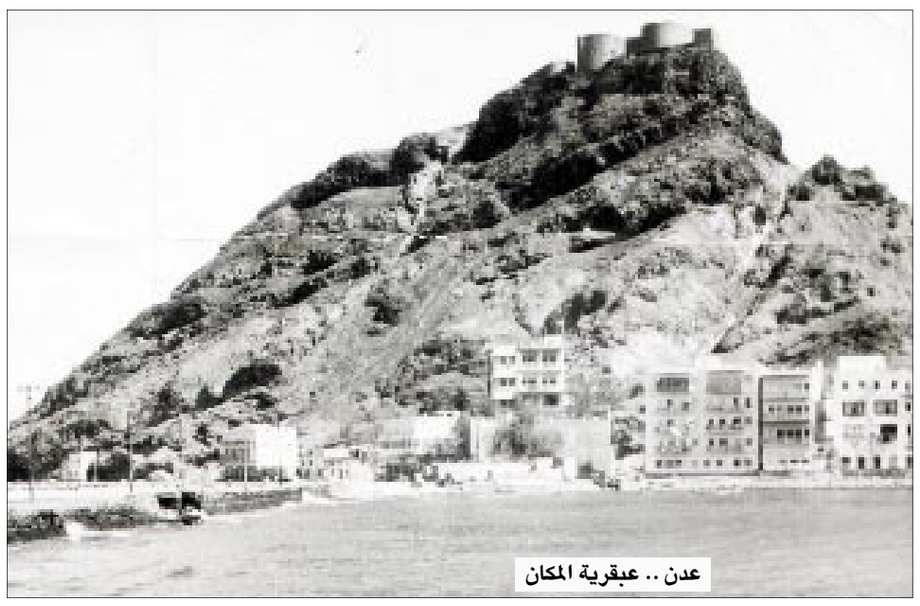

عدن .. عبقرية المكان

محمد عبده غانم

عبدالله الاصنج

لطفي أمان

جمال عبدالناصر

محمد سعيد جرادة

محمد مرشد ناجي

احمد قاسم

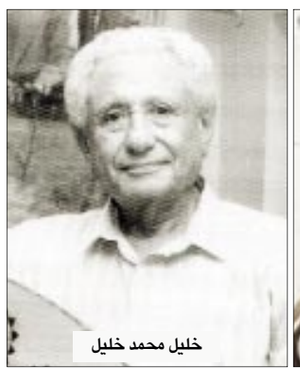

خليل محمد خليل

ولقد منحتني هذه المدينة الدفء ، والشعور بالأمان ، لكنها في نفس الوقت ألقت عليّ بمسؤوليات ثقيلة ، فلكي تكون مثلها يجب أن تكون محبا للحياة ، أن تكون بنفس حيويتها . ذلك هو سرها .

فمهما كنت قادما إليها من بعيد ، من البحر ، أو البر ، أو وقعت عليها من الفضاء ، فانها تعطيك إشارات محددة ، وإذا فهمتها أصبحت أنت والمدينة واحد ، أما إذا أسأت التصرف ، فوّت تلك الاشارات والرموز ، وهي على العموم ليست صعبة ، فإنها تلفظك كما يلفظ البحر الأجسام الغريبة .. !

باختصار، أنها مدنية تؤنسن، ذلك الذي يبغي، ولديه الاستعداد لكي يكون أنسانا. تضيف إليه معارف نادرة أساسية. وهي تفعل ذلك مجانا لكن الويل لك أن سلكت طريقا غير الذي يسلكه الناس. الويل لك إذا اقتلعت حجارة جبالها، أو ردمت ولو مترا من بحرها..! حينئذ لا يستطيع أن يقف في وجهها أو يمنع أحد ثورة البركان...

عدن، كانت يومها منعمة بالروح، والفكر، وزاخرة بالحياة. وتشق طريقها إلى حياة وفلسفة عيش خاصة بها، لكنها مثمرة توزع الخير، وتقدم السعادة لها وللجميع .

دعوني، أذكركم بالأسماء اللامعة، التي كانت تملأ الفضاء بالافكار ، والاعمال ، وبهجة الأشعار والغناء، في تلك الأيام: جمال عبدالناصر، محمد حسنين هيكل، أحمد سعيد، عبدالوهاب، عبدا لحليم، وام كلثوم من راديو القاهرة، وصوت العرب. وكان الوطن العربي كلمة في تلك الأيام، يرتدي صوت الحرية والوحدة والاستقلال. وأصداء الثورة الجزائرية تلهم الثوار في كل مكان.

وفي المدى العدني، كانت أسماء مثل عبدالله باذيب، وعبدالله الاصنج، ومحمد سالم باسندوة، وحسين القاضي، وعبدالله السلفي، وسواهم تتردد كثيرا في الصحف، وفي الشارع، ويصل صداها إلى الخارج.

أما محمد سعيد جرادة، ولطفي أمان، ومحمد عبده غانم، وادرسي حنبلة، وعلي لقمان فقد كانت أشعارهم نشيد الحرية، ووجدان الشعب.

وعلى صعيد الغناء فان محمد مرشد ناجي، ومحمد سعد عبدالله ، وأحمد قاسم، وسالم بامدهف، وخليل محمد خليل، وابوبكر سالم ، ومحمد عبده زيدي ، وياسين فارع وسواهم كانوا يصوغون بموسيقاهم وأغانيهم الوجدان العاطفي والروحي والوطني للناس الذين يتخطفونها صباح مساء.

وكما كانت عدن، تتسع لكل ألوان الغناء اليمني الصنعاني، واللحجي، والحضرمي، واليافعي، وكذلك للغناء الهندي عبر الأفلام الهندية، فإنها أيضا كانت تتسع لشتى الأفكار والتيارات السياسية: القومية، والبعثية، والماركسية، والليبرالية والإسلامية.

(يتبع)

عدن تتسع لكل الأفكار والتيارات السياسيةكما تتسع لكل ألوان الغناء

الخليط البشري من الأجناس واللغات والأديان في مدينة عدن أعطاها خاصية المدن الأممية

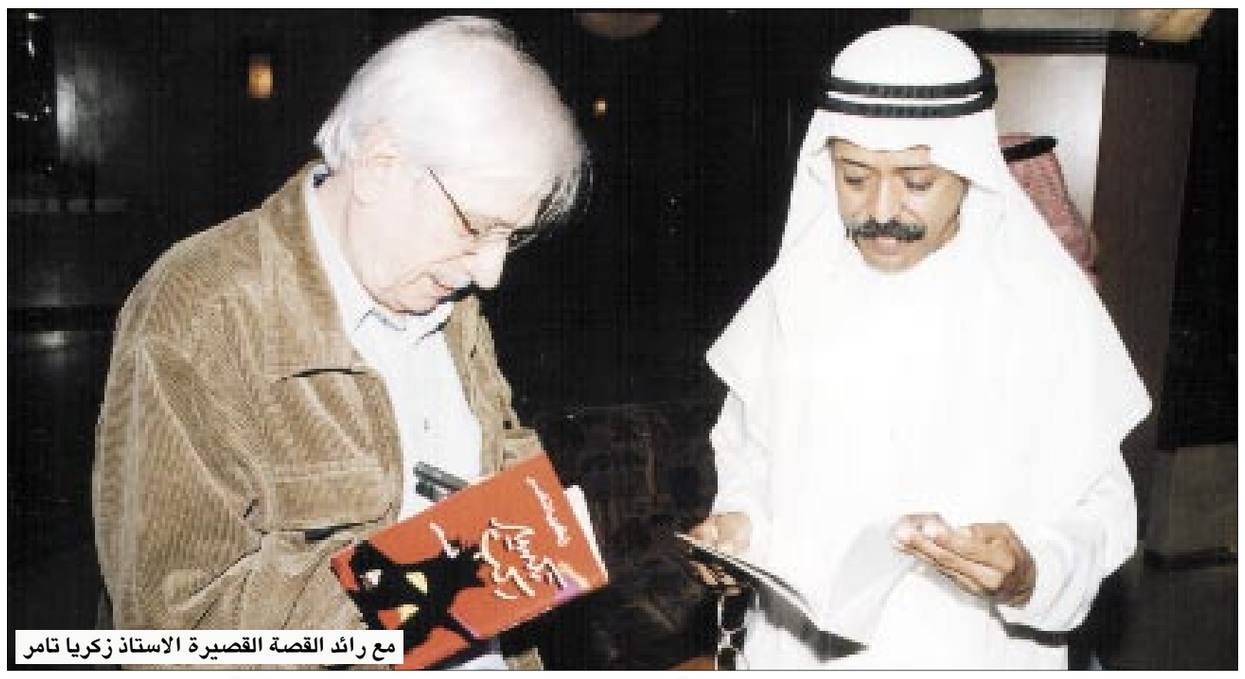

مع رائد القصة القصيرة الاستاذ زكريا تامر

للحياة الفنية التي كانت تعيشها عدن تأثير عميق في تكويني الثقافي

حفظت للاغنية اليمنية أصالتها التراثية .. ورفدتها بعناصر التجديد والحداثة

وسوف يفتح أمامي آفاق لا حدود لها ، ويلازمني حتى آخر العمر .

أما المورد الثاني ، إلى ذلك العالم فقد كان جدي ، وحكاياه وقصصه عن عوالم أخرى مدهشة . عوالم السندباد ، وحسن البصري ، وأمنا الغولة ، وتمر حنة ، والأقزام السبعة ، وعلي بابا والأربعين حرامي .. فأسرتني هذه العوالم المدهشة ، التي كان يرويها لي جدي ، قبل أن أكتشفها بعد ذلك في كتاب " ألف ليلة وليلة " ، وفي كليلة ودمنة " ، وفي السيرة الهلالية .

أستطيع أن أقول ، إن تلك العوالم الغريبة المدهشة والمخيفة في آن ، ذلك العالم الملئ بالسحر ، والأسطورة ، والخيال وباسراب الجنيات الساحرات والمسحورات ، وبالوحوش والطيور الخرافية ، ذلك العالم بكل ما فيه من سحر وأسطورة ، وخوف ورعب ، كان هو البداية ، التي جعلت مني كاتبا فيما بعد .

هل كنت أدرك ذلك ، في ذلك الوقت من طفولتي المبكرة ؟.

بالتأكيد لا ...

لكن تلك البذرة ، كانت قد ألقيت ، واستقرت في مكان ما مكين في ذاتي ، في داخلي ، في ذاكرتي ، وبعد سنين سوف تنبت قصصا وحكايا من نسجي ، ومن الواقع المدهش الملئ بالاسرار والخفايا ، والتراجيديا .

لكن هذا ليس سوى البداية ، أو فلنقل المرحلة الأولى فقط .

أما المرحلة الثانية ، أو التالية فستبدأ بعد ذلك ، عندما أدخل المدرسة . وقبلها الكتاب ، أو " المعلامة " ، وأصبح قادرا على القراءة وعلى الكتابة . سأختم القرآن الكريم وأنا بعد طفل صغير . وسأحفظ " جزء عما " كاملا عن ظهر قلب . وسيحتفل بي أبي ، وأقراني . وسيطوفون بي ، في أزقة البلدة ، وأنا أعلق " الختمة " على عنقي ، وسألقي خطبة كتبها لي أبي ، أشكر فيها معلمي الذي علمني القرآن . وقد وجدت في القرآن الكريم أحسن القصص عن الأنبياء وعن الاقوام التي سبقتنا ، (نحن نقص عليك أحسن القصص) ، (وأن هذا لهو القصص الحق) صدق الله العظيم .

المدرسة ، فكان لزاماً عليّ ، أن أجد ما يعوضني فقدان هذين المصدرين المهمين .

الحقيقة ، إنني لم أسع بنفسي للبحث عن مصدر جديد يعوضني هذا الفقد المبكر لمصادري القصصية الأولى ، أو لعلني لم أدرك قيمة أو فداحة ما خسرته . لكن الأقدار ، سوف تبعث لي بذلك العوض . وهذه المرة عن طريق المقهى والحكواتي .

من حسن حظي أن المقاهي ، وفي كل رمضان ، تتخصص في رواية قصة الاسراء والمعراج ، والسيرة النبوية الشريفة ، وقصص الفتوحات الاسلامية ، وقد انشددت إلى هذه السير ، وإلى أبطالها التاريخيين الحقيقيين . فتعرفت إلى نمط جديد من القصص الواقعي ، والأبطال الحقيقيين ، والوقائع التاريخية ، وهم أبطال وشخوص حقيقيون ، من لحم ودم ، غير أولئك الأبطال الأسطوريين الذين كانوا في الغالب من الحيوانات، والجان، والطيور الجارحة ، والساحرات والعوالم الخيالية . هذا عالم آخر غير عالم الخيال ، كما في حكايات جدتي وجدي ، أنه عالم الواقع. ولكنه واقع تاريخي ، وليس الواقع المعاش بحد ذاته ، أو كما يراه ويعيشه الطفل الذي كنته .

ربما عليّ أن أذكركم هنا ، بأن هذه المراحل التي تحدثت عنها حتى الآن ، كانت جميعها في أفريقيا ، حيث ميلادي ، ومراحل طفولتي الأولى ، ومراحلي العمرية المبكرة .

٢- المرحلة اللاحقة ، سوف تبدأ عندما يقرر الحضرمي أبي ذات يوم ، وبدون سابق إنذار ، أن يعود بنا إلى اليمن ، إلى حضرموت ، إلى مسقط رأسه . ويبدو أن هذا الحنين إلى الوطن والأهل لم يفارقه قط .

فجأة استبد الشوق بأبي ، فلم يعد يرى سوى البلدة التي غادرها ذات بحر ، ذات عام ، والأهل الذين طال غيابه عنهم ، في مرة سابقة أخذني معه بمفردي ، حيث رأيت جدي وجدتي لأبي لأول مرة ، ورأيت زوج أبي ، وأخوتي وأخواني وعماتي وبقية أهلي ، لكنني لم أستوعب المشهد كاملا رغم ما أحاطوني به من حب هذه المرة أراد أبي أن نرحل جميعا ، لكنه سبقنا في رحلة العودة هذه .

وذات صباح ، ذات بحر ، ركبنا سفينة شراعية ، ألقت بنا من جوفها بعد سير متعثر ، استغرق أسبوعين ، وسط أنواء وأمواج عاتية ، في قرية ساحلية قريبا من عدن ، هل كانت تلك وجهتها . أم أن الرياح غير المواتية هي التي قذفتها إلى هذا المكان ؟! وبعد أيام عدة ، علم أبي بوصولنا فجأة لأخذنا بسيارة جيب .. وهكذا وبعد عدة ساعات كنا في عدن .. وقد أذهلتني هذه المدينة إلى حد مدهش .. إلى مد خرافي .

عدن .. عبقرية المكان

ذات بحر ، سقطت عدن نقطة في المحيط ، فتحلق حولها الدلافين والحوريات والحيتان ، فسورتها الجبال ، هناك أرادها الإله حيث ينبغي لمدن الأساطير أن تكون أكثر اكتمالا . حين رأيتها لأول مرة ، كانت تتوسد الجبل ليلا ، وعندما أفقت صباحا ، كانت تغسل قدميها العاريتين في مياه الخليج .. وهذه هي روح الجغرافيا .

عندما رأوها ، كان ذلك لأول مرة ، رأوا زرقة البحر ، فشهقوا العبقرية المكان ، ولم يرتوا ، فحفروا صهاريج الطويلة في الصخر الصلد فكانت عبقرية الإنسان .

اجتمعت العبقريتان معاً ، فوشحوها بالأسماء فكانت في مدى البحر : جزيرة صيرة . خليج حقات ، الخليج الأمامي ، الساحل الذهبي ، ساحل العشاق ، خور مكسر ، المعلا ، التواهي ، وكلها معركة شرسة، دافع فيها الأهالي ، بأسلحتهم البدائية عن المدينة ، تسقط في قبضة الاحتلال البريطاني .. بعد أن فشلت محاولات من سبقوهم من برتغاليين وفرنسيين وسواهم .. وهذا هو التاريخ ، أو بعضه .

" بعد ذلك بسنين ، سيترك " توني بس " ، فرنساه ، مشدودا إلى عبقرية المكان ، فينشئ امبراطوريته التجارية في عدن ، ويرحل " بيكاجي قهوجي " من الهند حاملا معه أحلام الثراء ، وغرابين ، فتتكاثر ثروته ، وغربانه حتى تملأ الأفق . وسينظم اليهما آخرون من كل أصقاع الدنيا .

سيجرب الحضرمي ، شطارته المعهودة في التجارة ، في البيع والشراء فكان بازرعة ، باسشنفر ، وباعبيد ، وباهارون ، وكل ألباءات التي تشقى في دكاكين " الشحاري " ، المزروعة على الأقل ، بأسلحته البدائية ، تسقط في قبضة الاحتلال البريطاني .. بعد أن فشلت محاولات من سبقوهم من برتغاليين وفرنسيين وسواهم .. وهذا هو التاريخ ، أو بعضه .

" بعد ذلك بسنين ، سيترك " توني بس " ، فرنساه ، مشدودا إلى عبقرية المكان ، فينشئ امبراطوريته التجارية في عدن ، ويرحل " بيكاجي قهوجي " من الهند حاملا معه أحلام الثراء ، وغرابين ، فتتكاثر ثروته ، وغربانه حتى تملأ الأفق . وسينظم اليهما آخرون من كل أصقاع الدنيا .

سيجرب الحضرمي ، شطارته المعهودة في التجارة ، في البيع والشراء فكان بازرعة ، باسشنفر ، وباعبيد ، وباهارون ، وكل ألباءات التي تشقى في دكاكين " الشحاري " ، المزروعة على الأقل ، هذا ما كان الطفل الذي كنته .

وكان ذلك الخليط البشري ، من الأجناس ، واللغات ، واللهجات ، والأديان ، والألوان المتعايشة ، الذي كانت تمتاز به عدن ، دون سواها من المدن ، يعطيها خاصية المدن الأممية .. أنه شيء خاص تمتاز به دون بقية المدن اليمنية .. للأسف فقد فقدت عدن بعدها ، سأعرف طريقي إلى المدرسة النظامية ، إلى هنا وكل شيء طبيعي . مجرد طفل ، كالآخرين ، يتلقى مبادئ القراءة والكتابة والنحو ، والحساب : الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة . مضاف إليها بعض الجغرافيا ، والعلوم الطبيعية ، واللغة الانجليزية . أي تلك المعارف الأولية ، التي يحتاجها المرء منا ، لكي يحيط بالعالم من حوله إلى حد ما ، ويفهم ولو النزر اليسير من أسرار الكون ، وعظمة الخالق .

هذه المرحلة ، ترافقت مع فترة أخرى ، اعتبرها مهمة إلى حد ما في حياتي ، خلال تلك الفترة المبكرة من عمري .. واعتبرها امتدادا على نحو ما ، للمرحلة العمرية الأولى ، فقد مات جدي – رحمه – الذي كان أحد مناهلي الرئيسة إلى عالم القص والخيال . ولم أعد أرى جدتي كثيرا بعد أن كبرت في العمر ، وصار لزاما عليّ أن الزم